

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 15 (2011) : 461 - 469
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الدور الثقافي والديني للطرق الصوفية والزوايا في الجزائر

عبد العالي بوعلام
قسم العلوم الإسلامية المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

مقدمة:

يحتل موضوع التصوف وتحديدا الطرق الصوفية أهمية كبرى في حياتنا الفكرية المعاصرة، وهو من القضايا الشائكة والمعقدة في تاريخنا الثقافي والديني، وأسال الكثير من الحبر ولا يزال، ولا زلنا إلى يوم الناس هذا لم نفصل في هذا الموضوع برأي نهائي، فالكثير من الباحثين ما زال يتردد بين الإعلاء من قيمة هذه الظاهرة الدينية وبين الحط منها، وربما يعود ذلك إلى أنها مرتبطة بميول النفس البشرية وأهوائها لذا أردنا أن نتعرف في بحثنا المتواضع هذا على ماهية التصوف والطرق الصوفية وكيف لها كان لها تأثير على الجانب الثقافي والديني للمجتمع؟ من خلال الخطة التالية:

I– مفاهيم عامة حول التصوف

II– تاريخ انتشار التصوف في الجزائر

III– أهم الطرق الصوفية الموجودة في الجزائر

VI– التأثير الثقافي والديني للطرق الصوفية والزوايا على المجتمع الجزائري

الخاتمة.

I– مفاهيم عامة حول التصوف:

تعريف التصوف:

نسبت كلمة التصوف على عدة أمور:

1– نسبة إلى رجل زاهد متعبد في الجاهلية كان يلقب بـ صوفة: اسمه الغوث بن بركان[1].

2– قيل: من الصفة وهو مكان بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

3- وقيل: منسوبة إلى صوف القفا وهي جلدة الرقبة الخلفية لأنها لينة ورقيقة وهذا من طبعهم[3]

4- وقيل: إنها مأخوذة من قولهم صاف السهم عن الهدف يصوف أي: مال يميل، لأنهم يميلون عن الرذائل إلى الفصائل[4]

5- وقيل: مأخوذة من لبس الصوف[5].

6- وقيل: من الصفاء[6]

والراجح من هذه الأقوال أن التصوف مأخوذ من الصفاء ولبس الصوف.

أما مفهومه فقد تنوعت المفاهيم التي تناولت هذا المصطلح لكننا نختار منها تعريفين اثنين:

- تعريف الإمام القشيري إذ قال: "التصوف هو علم يعرف به أحوال تزكية النفس وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية"[7]

- تعريف الامام الجنيدي: "تصفية القلب من مواقفه البربرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية و مجانبة الدواعي النفسية ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بالعلوم الحقيقية واستعمال ما هو أولى على الأبدية والنصح لجميع الأمة والوفاء لله على الحقيقة وإتباع رسول الله في الشريعة"[8].

تعريف الطرق الصوفية

مصطلح طريقة أطلق على العديد من المعاني نذكر منها:

- هي الحلقة بين الشريعة الإسلامية والحقيقة الإلهية[9]

- كما أطلقت على ما يسمى "بالورد" الذي هو المنبع وهو أيضا الدخول في الطريقة إذ يقال ورد أو دخل الطريقة على حد السواء على أن الداخل في الطرقة يأخذ الورد من الشيخ أو خليفته وبهذا يصبح الورد هو تعاليم الطريقة[10]

- كما تعني: اتصال المريد بالشيخ وارتباطه به حيا أو ميتا بواسطة ورد الأذكار يقوم به المريد بإذن من الشيخ أول النهار وآخره[11].

تعرف الزاوية:

لكل طريقة زاوية والزاوية عادة تعني الركن من البيت وقد تولدت عنها معاني كثيرة منها انزواء الناس بعضهم لبعض أي تضامنوا.

وقد أخذت الزاوية في شمال إفريقيا معنى البناء الديني الشبيه بالمؤسسة التعليمية في الغالب على قبة وغرفة للصلاة وضريح لولي وغرف لتحفيظ القرآن واستقبال الزائرين

أما الزاوية بالمعنى الصوفي فهي الخلوة للعبادة، وقد كانت أساسا للرباط في الجهاد.وقد قسم الباحثون الزوايا إلى ثلاثة أقسام[12]:

القسم الأول: هي الزوايا المطلقة والتي تنسب لمكان ما، بنيت للعلم وأفعال البر والإحسان (وتعتبر هذه أحسن أنواع الزوايا لأنها تنسب لشخص معين).

القسم الثاني: فهي التي تنسب إلى شخص ميت تقدسه العامة وتحي ذكراه أين يكون مدفونا بها، وتكون هذه الزاوية مكانا لطلب البركة لا للعلم والإحسان.

القسم الثالث: هي الزوايا المنسوبة إلى إحدى الطرق الصوفية وهي إما زاوية الطريقة الأم أو فرع لها لكن تنسب إليها.

II – تاريخ انتشار التصوف بالجزائر

بدأ التصوف في الجزائر تصوفا نظريا، ثم تحول ابتداء من القرن العاشر الهجري، واتجه إلى الناحية العملية الصرف، وأصبح يطلق عليه "تصوف الزوايا والطرق الصوفية"، وقد ظل هذا التصوف العملي سائدا في جميع أنحاء المغرب الإسلامي حتى بعد سقوط الدويلات الثلاث ودخول الأتراك العثمانيين، وكان من أوائل وأحد أوتاد الطريقة الصوفية في الجزائر: الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلس، وقد عرفت طريقته "المدينية" شهرة واسعة وأتباعا كثيرين، في مختلف أنحاء المغرب الإسلامي، وازدادت شهرة على يد تلميذه عبد السلام بن مشيش (ت 665هـ= 1228م)، ثم ازدادت نشاطا وأحياها من بعده شيخ الطائفة الشاذلية وتلميذ ابن مشيش:"أبو الحسن الشاذلي". وكان لتعاليم الشاذلي في الجزائر الأثر الأكبر بحيث يكاد يجزم أن معظم الطرق التي ظهرت بعد القرن الثامن تتصل بطريقة أو بأخرى بالطريقة الشاذلية. ومن أبرز علماء الجزائر الذين شاع التصوف العملي وانتشر بفضلهم عبد الرحمن الثعالبي سيدي عبد الكريم المغيلي والسنوسي....

ونستطيع القول أن التصوف العملي أو الطرق الصوفية أول ما وجدت وجدت في بلاد القبايل بجاية والمناطق المحيطة، وكانت بجاية مركز إشعاع طرقي صوفي لعدة قرون من الزمن. بواسطة رجالات التصوف الكبار من أمثال أبي مدين، أبو زكريا الزواوي، أبو زكريا السطيفي، يحي العيدلي، أحمد زروق... ومن بجاية انتشر التصوف إلى بقية مناطق المغرب الأوسط.

ويمكننا القول أن أسباب انتشار التصوف بالجزائر يرجع إلى أسباب فكرية وأساب سياسية واجتماعية.

1-أسباب فكرية:

كوجود أعلام صوفية عملوا على نشر هذه الطريقة بكامل المغرب الإسلامي، أثروا

بسلوكهم وبعلمهم وبمؤلفاتهم، من أمثال الشيخ أبي مدين، الملياني والثعالبي... ويضاف إلى ذلك تأثر كثير من علمائنا بالتصوف المشرقي بدأ يسيطر بدوره على الساحة الفكرية بعد محاولة الإمام الغزالي التوفيق بين الشريعة والحقيقة.

2-أسباب سياسية:

كسقوط الدولة الموحدية: التي كانت تمثل دولة قوية واجهت الغزو الاسباني، ولأسباب داخلية وخارجية تدهورت أوضاعها، وكسقوط الأندلس: نتيجة التدهور السياسي الذي أصابها عقب سقوط الدولة الأموية ونتج عن سقوط الأندلس أمران: الغزو الإسباني لمعظم سواحل المغرب الإسلامي، الأمر الثاني: هجرة كثير من صوفية الأندلس إلى الأراضي الجزائرية.

3-أسباب اجتماعية:

منها انتشار البذخ والترف عند طبقات معينة، نتيجة الثراء الفاحش، وتراجع القيم الدينية والأخلاقية حيث أهمل الخاصة والعامة الكثير من مبادئ الدين وسلوكه القويم، وقد حارب الصوفية هذا الانحراف، وقاوموا بكل السبل والطرق هذه الاختلالات، مما أدى إلى انتشار مذهبهم.

ومكننا القول ان التصوف قد مر بمرحلتين أساسيتين:

* فترة التصوف النخبوي: وذلك خلال القرون السادس والسابع والثامن الهجرية: وهي الفترة التي بقي فيها التصوف يدرس في المدارس الخاصة، واقتصاره على طبقة معينة من المتعلمين، وعدم انتشاره بين الطبقات الشعبية، وبقائه في الحواضر الكبرى: تلمسان، بجاية، وهران...

* فترة التصوف الشعبي: وهي ما تعرف بفترة الانتقال من التصوف الفكري إلى التصوف الشعبي، وقد وقع ذلك في القرن التاسع الهجري، وفيها انتقل التصوف من الجانب النظري إلى الجانب العملي، وهو الانتشار الكبير للزوايا والرباطات في الريف والمدن، وانضواء الآلاف من الناس تحت لوائه، والتركيز على الذكر والخلوة، وآداب الصحبة وما إليها من مظاهر التصوف الشعبي. وبفتح باب التصوف للعامة وأهل الريف، انتقل من النخبة إلى العامة، من المدينة إلى الريف، وظهرت الطرق الصوفية الكبرى وانتشرت في مختلف أرجاء القطر: كالقادرية، المدينية، الشاذلية...

III – أهم الطرق الصوفية الموجودة في الجزائر[13]:

لقد تعددت وتنوعت الطرق الصفية في الجزائر مع دخول التصوف وتفاوت هذه الطرق من حيث الأهمية والظهور، إذ هناك طريقة قديمة الظهور وأخرى حديثة، كذلك نجد طرق أصيلة

ظهرت في الجزائر وتفرعت فيها وفي غيرها من البلاد الإسلامية وهناك العكس فروع لطرق موجودة في الخارج كما أن هناك طرق كثيرة الأتباع وأخرى محدودة.

الطريقة القادرية: ينتشر أتباع الطريقة القادرية في كثير من البلاد أشهرها سوريا وتركيا والعراق والمغرب والجزائر وفلسطين ولبنان وموزمبيق والكاميرون ونيجيريا والصين والاتحاد السوفيتي وغانا وإيران والجزائر والسودان والنيجر ومالي وغينيا وتشاد وأفغانستان وباكستان والصومال وأندونيسيا ويوغسلافيا ومصر وتونس وماليزيا.

الطريقة القادرية، أحد الطرق الصوفية السنية

مؤسس الطريقة: هو عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله الجيلي الحسني، ولد بجيلان سنة 470 ه وقدم بغداد شاباً سنة 488 ه ، وتفقه على عدد من مشايخها. جلس للوعظ سنة 520 ه، وحصل له القبول عند الناس، واعتقدوا ديانته وصلاحه، وانتفعوا بكلامه ووعظه. اشتهر عن الشيخ عبد القادر ما يدل على فقهه وثبات قدمه في العلم. وظهرت على يديه الكثير من الكرامات، وتاب وأسلم على يديه العديد من الناس. توفي وعمره 90 عاماً ودفن بالمدرسة المذكورة سنة 561 ه.

دخلت هذه الطريقة إلى الجزائر على يد الولي الصالح أبو مدين شعيب بن حسين وانتشرت بين الناس شمالا وجنوبا شرقا وغربا وتعتبر من الطرق الأكثر انتشارا في العالم نظرا لأن شيخها هو شيخ الشيوخ كلهم بلا منازع، مقر الزاوية الأصلي ببغداد حيث ضريح الشيخ هناك ولها فرع في مدينة الرويسات بورقله يعتبر هو المركز بشمال إفريقيا يقوم على خدمته أبناؤه وهذا الفرع يتبر المركز الثاني بعد أن شيد أول الأمر في مدينة واد سوف ثم انتقلت بعد ذلك إلى الرويسات.

الطريقة التيجانية: أحد الطرق الصوفية السنية، مؤسسها أبو العباس أحمد التيجاني في مدينة أبي سمغون ولد عام 1150 هـ– 17763م في قرية عين ماضي بولاية الأغواط – الجزائر– حفظ القرآن وارتحل إلى فاس وتلمسان وتونس والقاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة وبغداد طلبا للعلم. في عام 1196 أنشا طريقته توجد زاويته بعين ماض وضريحه بالمغرب وهي من أكبر الطرق انتشارا في العالم.

الطريقة الرحمانية: طريقة صوفية سنية تأسست في الجزائر من قبل سيدي امحمد بوقبرين هي أصلا شاذلية، تأسست في قرية آيت اسماعيل قرب بوغني في منطقة القبائل من قبل الشيخ ثم أسس الزاوية الثانية بعد أن ارتحل إلى العاصمة في الحامة فأصبحت تسمى زاوية الحامة لها انتشار كبير في الجزائر وضواحيها.

الطريقة السنوسية: مؤسسها محمد بن علي السنوسي 1787–1859 وهو المؤسس للدعوة

السنوسية وتنسب إلى جده الرابع ولد في مستغانم بالجزائر أين اخذ على مشايخها ثم ارتحل على المغرب وتونس ليبيا ومصر والحجاز واليمن ثم عاد على مكة وأسس بها أول زاوية لما عرف بعد بالحركة السنوسية له نحو أربعين كتابا:منها: الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية– إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن.

من المميز لهذه الطريقة اهتمامها بالزراعة والفلاحة.

انتشرت الدعوة السنوسية في إفريقيا الشمالية كلها وجنوبا إلى الصحراء في السودان والصومال وفي خارج إفريقيا حيث وصلت إلى أرخبيل الملا في الشرق الأقصى.

الطريقة العلوية: تنسب إلى الشيخ مصطفى العلوي المستغانمي حامل لواء الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي ولد سنة 1291 في مدينة مستغانم وحيدا بين أختين أخذ الشيخ العلم عن علماء وقته حتى تضلع ثم أخذ علمه عن الشريف محمد بن الحبيب البوزيدي الصوفي ولما انتقل الشيخ إلى جوار ربه تولى خلافته آخذا في نشر العلم وتشييد الزوايا وإنشاء الصحف بالفرنسية والعربية وإقامة الندوات.

توفي سنة 1351هـ ودفن بزاويته في مستغانم وأقيم عليه مقام يؤمه الناس

الطريقة العيساوية: فرقة صوفية مغربية أصله الطريقة الشاذلية أسسها سيدي محمد بن عيسى العربي ولد في فاس سنة 872هـ وتوفي 1574 م ودفن بمكناس أصلها يعود إلى سيدي محمد بن سليمان الجزولي تشتهر باستعمالها للمدائح والآلات الموسيقية.

لم يقتصر نشاطه داخل الجزائر بل تعداه إلى كافة أرجاء أوربا وغيرها فكانت له زاوية في بريطانيا– هولندا– فرنسا– الحبشة– الحجاز– فلسطين– سوريا

الطريقة البوشيخية: تنسب إلى مؤسسها سيدي عبد القادر بن محمد وهي أصلها شاذلية في مدينة البيض قرية لبيض سيدي الشيخ في الجزائر يسمى الشيخ بسيدي الشيخ

تعتبر هذه الطريقة رمزا للجهاد في الجزائر متمثلة في الشيخ بوعمامة وذريته وأبناء عمومته

من أهم مؤلفات الشيخ رحمه الله قصيدة "الياقوتة"

VI– التأثير الثقافي والديني للطرق الصوفية والزوايا على المجتمع الجزائري(14)

لقد كان للطرق الصوفية مكانة هامة لا يستهان بها غذ كان لها الدور الفعال في معظم الأحداث خاصة الثقافية منها والدينية والهدف من الحديث عنها ليس إبراز مكانتها كعقيدة بقدر ما هو إبراز دورها الثقافي والديني خاصة لهذا نجد أن الزوايا في عصر المرابطين أخذت تتضمن مهنة التعليم بعد أن كانت وظيفتها تقتصر على الإطعام وإيواء الضيوف العابرين وتامين الناس ومنح الأتباع البركة.

ومن المعروف أن حركة التعليم في الجزائر كانت تقتصر على الحواضر الكبرى مثل تلمسان، بجاية، قسنطينة لكن مع ظهور الزوايا في كامل الأرجاء برز دورها الأساسي في نشؤ العلم والثقافة في الأرياف فأوجدت بذلك نوعا من التوازن بين الأرياف والمدن فغالبية الطرق الصوفية كالقادرية والرحمانية أعطى أهمية خاصة للتعليم بل كان مشايخ الطرق هم العلماء الذين يعلمون العلم.

ولقد كان نمط هذه الطرق يعتمد على تحفيظ القرآن وتدريسه لكل أطيف المجتمع صغار وشباب وكبار بصورة مكثفة ومتواصلة مما ساعد على محو الأمية ودفع آفة النسيان.

كما اهتموا بتدريس العلوم اللصيقة به وشرحه والاستفادة من تعاليمه الدينية والدنيوية خاصة فيما يتعلق بالسلوك والأخلاق العامة، الشخصية والجماعية.

كما كان للزوايا والطرق الصوفية دور هام في نشر الإسلام في الأماكن البعيدة التي لم يكن قد وصل إليها خاصة الأقاليم الصحراوية النائية.

من جهة أخرى نجد ان زوايا الطرق الصوفية كانت تعتبر بمثابة مخازن ودواوين لكثير من الكتب العلمية والمخطوطات في مختلف أنواع العلوم والفنون وهذا راجع لاهتمام المشايخ بالعلم .

كما كان للمرأة في الزوايا جانب من الاهتمام حيث اعتنوا بالمرأة وعلموها وأخرجوها من الجهل التي كانت تعيشه إذ هي نصف المجتمع والمربي الأول للأجيال الصاعدة وسيعين كثيرا على تطبيق تحقيق مراد الزوايا في نشر العلم.

وبهذا نجد أن الطرق الصوفية تعددت أفكارها المستوحاة من البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري وقدمت خدماتها على أكمل وجه للمجال الروحي والتربوي على حسب الطريقة ونشاط شيخها بالإضافة على المحيط البيئي الذي ظهرت فيه وكيف نظر إليها المجتمع.

وعليه مهما كان نوع الدور التي قامت به هاته الطرق فهي تبقى أحد مقومات الثقافة الجزائرية والعنصر الوحيد الذي حافظ على هذا الإرث فهي محور الثقافة الإسلامية ذلك أن مساهمتها في الحياة الفكرية للجزائريين تعد مهمة إلى درجة أن صداها وصل على الدول المجاورة

الخاتمة:

مما سبق نستخلص أن للزوايا والطرق الصوفية كانت مركز إشعاع هام لكثير من فئات المجتمع. كما أن لها دور مهم في حياة الإنسان الجزائري وخاصة في الصحراء الكبرى حيث عملت على:

– التخفيف من معاناة الشعب الجزائري، وذلك من خلال نشر العلم بين جميع فئات المجتمع و التكفل بالفقراء والمساكين واليتامى والأرامل.

الحفاظ على الإرث الثقافي للمجتمع من خلال المحافظة على الكتب العلمية والمخطوطات

– الحفاظ على تماسك المجتمع الجزائري ووحدته، حيث كانت تجتمع بالزاويا مختلف الأعراش والقبائل، من مناطق مختلفة، فتنمحي بذلك الفوارق الجهوية.

– تمكنت من قطع الطريق على كافة الجمعيات التبشيرية والتي كانت تتخذ من النشاط الاجتماعي وسيلة لتحقيق مآربها التنصيرية، خاصة اتجاه اليتامى من أبناء هذا الشعب.

الهوامش:

1- فاطمة داوود، التصوف الإسلامي، مفهومه وأصوله، ، مستغانم 2004، ص 60.

2- أحمد الشرباصي:ص 147.

3- المرجع نفسه، ص 147-148.

4- المرجع نفسه، ص 146-147.

5- محمد صالح رزايقية، أضواء على تاريخ سيدي عبد الشرف، درا حومه – ص 22.

6- ابو بكر محمد الكلابادي، التعرف بمذهب التصوف.

7- الرسالة القشيرية للإمام القشيري دار الفكر ص 34-35.

8- احميدة عميراوي، رسالة الطريقة القادرية في الجزائر، ص 14.

9- ابو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي،1830-1954، ص 17.

10- أبو بكر جابر الجزائري، إلى التصوف يا عباد الله، ص 23.

11- احميدة عميراوي، مرجع سابق، ص 16.

12- أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 25.

13- محمد بن بريكة موسوعة الطرق الصوفية- الطريقة القادرية ج1 ص 10-11 وصلاح مؤيد الغقبي الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر ص 143، فرق ومذاهب الطريقة الشاذلية- مجلة الراصد، ع2 ذي الحجة 1427هـ

14- الموقع الالكتروني http/www.alrased.net بتاريخ 2009/04/10، بعض الطرق الصوفية على الرابط http//www.mostghanem.com/t17746-topic

15- أنظر امبارك محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث مكتبة النهضة الجزائرية، ص 318، امبارك محمد الهلالي الميلي التعليم الديني وحظ الزوايا منه مجلة الشهاب، العدد 1926/02/13 ص 269.